

عبدالرحمن بن الهيثم

طلیعة الأطباء النباتيين في الأندلس

فاضل السباعي

أستهل حديثي عن الطبيب القرطبي، العالم، عبدالرحمن بن إسحاق بن الهيثم، فأزعم أنه قد جار عليه اثنان من علماء بلده الأندلس، وذلك حين أرخا للأطباء والعلماء في زمنه، وأهملا الترجمة له! ... حتى إذا لاح اهتمام ما به، في الأعصر التالية، ناله، في زماننا نحن، إهمالاً جديد على يدي اثنين من مؤرخي الأعلام، في هذا القرن العشرين!

فأما المؤرخان الأندلسيان، فأولهما بلديّ وعصريّ سليمان بن جُلجل القرطبي في كتابه "طبقات الأطباء والحكماء"، والآخر هو المؤرخ اللاحق لجيله القاضي صاعد الطليطي في كتابه "طبقات الأمم".

وأما مؤرخا القرن العشرين، فهما الشاميان: خير الدين الزركلي صاحب موسوعة "الأعلام"، وعمر رضا كحّالة صاحب "معجم المؤلفين"، طيب الله ثراهما وهما اليوم في جنان النعيم^(١).

(١) توخياً للدقة أبين أن أول المؤرخين الأندلسيين، ابن جُلجل، قد أتى على ذكر طبيبنا الرائد ابن الهيثم، تعداداً بين "تفر من الباحثين عن أسماء عقاقير ديسفوريدس"، أولئك الذين عملوا في صحة الطبيب الراهب نقولا القادم من القسطنطينية، فأتيح لهم أن يُصححوا أسماء هذه العقاقير بالعربية، وأن يققوا على ماهيتها (على نحو ما نُبين أدناه) ... فكانت فائدة جليلة نعم الطب بها، طوال القرون الخمسة التالية من عمر الإسلام في الأندلس.

أولاً: الرجل والعصر

١- العصر:

إذا كان إقبال الأندلسيين على الطب، تعلماً وممارسة وتوقفاً، قد أخذ يعطي ثماره بدءاً من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، فإن هذا الازدهار قد اقترن بعنايتهم الفائقة بالطب النباتي على وجه الخصوص.

وأية ذلك أنّ أمويي الأندلس، بعد أن استتب لهم الحكم في الداخل، في النصف الأول من القرن الرابع خاصة، وخضعت لهم رقابُ الأعداء وراء الحدود، التفتوا إلى العلوم والآداب، فاستجلبوا، من مشرق العالم الإسلامي، مئات الكتب والمصنفات. ولكن بدا أن علاقة ما قد قامت، في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (حكمه: ٣٠٠ - ٣٥٠هـ)، بينه وبين القسطنطينية، حين أوفد إليها سفارة في سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦م)، فرد إمبراطورها بسفارة مثلها إلى قرطبة سنة ٣٣٧ (٩٤٩) حملها كتابين هما: تاريخ "هروشيوش" (باللاتينية)، و"وحشائش" ديسقوريدس (بالإغريقية).

وقد كان ميسوراً للأندلسيين أن يُعرّبوا الكتاب الأول، فإن بينهم كثيراً ممن يعرفون اللاتينية ويتقنونها. إلا أن نقلهم الكتاب الآخر عن الإغريقية كان متعذراً. ولقد فطن المهدي قسطنطين السابع^(١) - وكان عالماً معنياً بالتاريخ - إلى هذه المسألة، فقال في خطابه إلى عبدالرحمن الناصر (كما روى ابن جلجل):

(١) وليس أرمانيوس (رومانوس)، كما ورد في المصادر العربية؛ ذلك أن القائد العسكري "ليكابينوس رومانوس"، المتسلط على الإمبراطور الشرعي قسطنطين، كان قد عُزل سنة ٩٤٤م (٣٣٢هـ)، قبل أن يقضي في منفاه في ١٥ حزيران ٩٤٨م (٤ ذي الحجة ٣٣٦). انظر: الدكتور السيد الباز العريني: "الدولة البيزنطية"، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٢، ص ٤٠٩.

"إن كتاب ديسقوريدس لا تُجتنى فائدته إلا برجل يُحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية. فإن كان في بلدك من يُحسن ذلك فُزْتُ، أيها الملك بفائدة الكتاب...!"

ويتابع ابن جلجل روايته:

"فلما جاوب الناصرُ أرمانئوس الملك، سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقي واللطيني..."^(١).

ثم كان على علماء قرطبة أن ينتظروا سنوات ثلاثاً إلى يوم يقدم إليهم موفداً من القسطنطينية، هو الطبيب الراهب نقولا، الذي كان يتكلم الإغريقية (اليونانية القديمة) لغة ديسقوريدس، فضلاً عن إتقانه اللاتينية الشائعة بين نصارى الأندلس وغير قليل من متقفي مسلميها.

وبوصول الطبيب القسطنطيني قام "نقر" من الأطباء والعلماء في قرطبة^(٢)، ممن كان "لهم بحثٌ وتفتيشٌ وحرصٌ على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية"، وهم: حسداي بن شبروط الإسرائيلي (وكان مُقرباً من الناصر)، ومحمد المعروف بالشجار، والبسباسي، وأبو عثمان الجزار، ومحمد ابن سعد الطبيب، وعبدالرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وأبو عبدالله الصقلي .. قام

(١) ابن أبي أصيبعة: "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" (نقلاً عن ابن جلجل)، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ببيروت (دون تاريخ)، ص ٤٩٤.

وللحقيقة، لقد كان تعريب كتاب الحشائش قد تم - قبل ذلك التاريخ بمئة سنة - في عاصمة العباسيين أيام المتوكل (المتوفى ٢٤٧هـ): قام بذلك اصطفن بن بسيل وأجازه أستاذه الطبيب حنين بن إسحاق. ولكن النص العربي جاء قاصراً، بسبب إخفاق المترجم في أن يجد دائماً المقابل العربي لأسماء العقاقير والنباتات الإغريقية!

(٢) النفر: ما دون العشرة من الرجال؛ وذلك ما يمكن أن نطلق عليه، هنا، بلغة عصرنا: اللجنة، أو فريق العمل!

هؤلاء بمهمة مراجعة الكتاب، والوقوف على ماهية العقاقير المذكورة فيه، وتسميتها بالعربية.

إن هذه المعلومات المتعلقة بوصول كتاب ديسقوريدس إلى قرطبة، ثم استدعاء مَنْ لَعْنُهُ الإغريقية من القسطنطينية، وما أسفر عن ذلك من مراجعة الكتاب وفهم محتواه ... كان يُتوقع لهذه المعلومات المهمة، أن تضيع في زحمة التاريخ، لولا أن قيدها لنا معاصرُ تلك الحقبة، سليمان بن حسان بن جلجل^(١).

وعلى ذلك فإن ابن جلجل، صاحب "طبقات الأطباء والحكماء" - الكتاب الذي استوعب تراجم عديدة لأطباء أندلسيين ولغيرهم - كان هو وطبيبنا ابن الهيثم متعاصرين، وقد أظلتهما - بعد عصر عبدالرحمن الناصر - أيامٌ ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ)، وبعد هذا عهدٌ ولده هشام المؤيد بالله!

فكيف يسوغ أن يُغفل ابنُ جلجل - وهو المؤرخُ العارف والطبيب العالم - التعريف بمعاصره الطبيب الرائد في علم العقاقير والنباتات الطبية عبدالرحمن بن الهيثم؛ على حين يورد في كتابه هذا، أخباراً عن أطباء لم يُعرفوا بالريادة، ولا وُصفوا بالتفوق، ومنهم من أضربت المصادر التاريخية عن ذكره، بعد ابن جلجل، فلم تتحدث عنه البتة؟!!

٢ - ملامح من شخصيته:

(١) يُعد ابن جلجل (المولود بقرطبة سنة ٣٣٢هـ) من أبرز أطباء الأندلس. له مؤلفات في المفردات النباتية. على أن شهرته الواسعة، اليوم، تقوم على كتابه التاريخي المهم: "طبقات الأطباء والحكماء"!

وقد أعددت بحثاً مستفيضاً بعنوان: "الطبيب القرطبي ابن جلجل وعصر ازدهار الطب في الأندلس"، قدمته في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب (طرطوس، أيار ١٩٨٩). وفي شأن التحقيق في تاريخ وفاته، انظر الحاشية ٣ ص ٣٣.

ومع أن المصادر التاريخية التالية على عصر ابن جلجل، لم تكن بأكرم منه بالمعلومات المتصلة بطبيبنا عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم؛ إلا أننا نستطيع - بالضئيل الذي قدمته لنا المصادر - أن نرسم خطوطاً لشخصيته، مستكملين ملامح صورته من خيال مستمد من الواقع، في محاولة لتقريبها من الذهن والإحساس!

نقدّر، أولاً، أن أبا إسحق كان - حين التقى بالراهب نقولا سنة ٣٤٠ هـ - في نحو الأربعين من عمره، سن النضج العلمي والاكتمال العقلي، بدليل اختياره عضواً في "اللجنة" العلمية المتعاونة مع الطبيب نقولا؛ فهو إذن، من مواليد أوائل المئة الرابعة للهجرة (٩١٤ م وما حولها)، ولعله ولد قبل ذلك!

ونرى أنه كان يعرف اللاتينية، اللغة المشتركة مع الطبيب نقولا، وإلا استحال إسهامه في مراجعة كتاب ديسقوريدس!

وهذا يقودنا إلى أن نفترض - بحذر - أنه من طائفة "المؤلدين"، المتنامية في المجتمع الأندلسي، والتي وسع النظام الإسلامي لها فرص العمل والنجاح وارتقاء المناصب^(١).

ولأنه أدرك الخليفة هشام المؤيد بالله (هذا الذي ابتدأت أيامه بوفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ)، بدليل أنه صنف كتاباً لحاجبه "القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر"^(٢)، فإن ابن الهيثم يكون، بذلك قد عمّر يقيناً ما يزيد على ستين عاماً!

وإذا كنا قد افتقدنا معرفة شيوخه وأساتذته، الذين أخذ عنهم المعارف والعلوم في اللغة والفقه والطب، فإن لنا أن نتصور أنه كان تلميذاً نجيباً، ثم مصاحباً

(١) المؤلّدون: هم ذراري "المسالمة"، هؤلاء الذي ظلوا يدخلون الإسلام من نصارى الأندلس. ويؤيد افتراضنا هذا في ابن الهيثم، أن المصادر لم تقرن باسمه إلا اسمي الأب والجد، فلم تنسبه إلى أصل عربي!

(٢) ابن أبي أصيبعة: ٤٩٣. وسيرد تفصيلاً لذلك أدناه.

- لمشاهير الأطباء الذين ظهروا أوائل القرن الرابع الهجري، ونبغوا، وتهياً لبعضهم أن يخدم بالطب عبدالرحمن الناصر ... من هؤلاء:
- ١- أصبغ بن يحيى، الذي ألف للناصر "حب الأنيسون".
 - ٢- الجراح يحيى بن إسحق، وقد استوزره الناصر.
 - ٣- سليمان بن باج، الذي كان ضنيناً بنسخ أدويته على الأطباء^(١).
 - ٤- ابن أم البنين، مُنادم الناصر.
 - ٥- عمران بن أبي عمر، وقد ألف للناصر أيضاً "حب الأنيسون" وكان يحضر مجالسه.
 - ٦- سعيد بن عبد ربه، الطبيب الأديب الشاعر، الذي لم يخدم سلطاناً! "له، في الطب، رجزٌ أحسنَ فيه"^(٢).
 - ٧- عمر بن بريق، الذي كانت له إلى القيروان (في تونس) رحلة، لزم فيها الطبيب ابن الجزار، ثم عاد إلى الأندلس وفي جعبته كتابٌ للطبيب القيرواني، أو كتابان^(٣).
 - ٨- الطبيب نقولا الراهب، القادم من القسطنطينية^(٤).

(١) نُسخ الأدوية: هي "الوصفات الطبية"، بلغة اليوم!
(٢) وهو ابن أخي أبي عمرو بن عبد ربه، صاحب كتاب "العقد الفريد".
(٣) إن مصدر معرفتنا عن هؤلاء الأطباء السبعة، هو ابن جلجل في كتابه "طبقات الأطباء والحكماء"، تحقيق فؤاد سيّد، مؤسسة الرسالة ببيروت، طبعة مصورة ١٩٨٥، ص ٩٨-١٠٨.
ويتضح بذلك، مدى الحيف الذي أوقعه هذا الطبيب المؤرخ بمعاصره العالم ابن الهيثم، حين ترجم لهؤلاء ولغيرهم، وأضرب عن ذكره في كتابه التاريخي هذا!
(٤) والذي ظل في الأندلس إلى أن وافته المنية - حسب قول ابن جلجل - في صدر دولة الحكم المستنصر (التي ابتدأت في ٣٥٠هـ)، ابن أبي أصيبعة: ٤٩٤.

- ونحسب، أيضاً، أنّ من أصحاب ابن الهيثم، من قد تأخر سنّاً عن هؤلاء،
ومنهم منّ خدم بالطب الناصر، ثم ابنه الحكم المستنصر ... ومنهم:
- ٩- أبو الوليد الكتّاني، الذي كان لطيفاً في علاج المرضى!
- ١٠- محمد بن تملّيح التميمي، له في الطب "كتاب الأشكال".
- ١١- أبو موسى هارون الأشونى، الذي كان ممارساً للجراحة.
- ١٢- أبو عبد الملك الثقفي، وقد تولّى خزّانة السلاح على عهد الناصر، ثم المستنصر.
- ١٣- أحمد بن حفصون. خدم بالطب المستنصر.
- ١٤ و١٥- الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس، اللذان دخلا بغداد قبل أن ينصرفا إلى بلدهما الأندلس ... ثم التحقا بخدمة المستنصر.
- ١٦- محمد بن عبدون الجبلي. دخل البصرة، ثم نُبل بالطب في الفسطاط (بمصر). خدم المستنصر، ثم ابنه هشام المؤيد بالله^(١).
- ١٧- حامد بن سمحون، الطبيب النباتي.
- ١٨- الجراح أبو القاسم، خلف بن عباس الزهراوي^(٢)، الذي أثبتت الأيام أنه أعظم الجراحين في التاريخ!
- ١٩- وذلك فضلاً عن سليمان بن حسّان بن جلجل، الطبيب المؤرخ، موضع الجدل في بحثنا، صاحب "طبقات الأطباء والحكماء".

(١) وهؤلاء الثمانية ممن ترجم لهم ابن جلجل: ١٠٨-١١٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة: ٥٠٠ و٥٠١.

والطبيبان، ابن سمحون والزهراوي، هما ممن أغفل ابن جلجل الإشارة إليهما؛ ومرد ذلك - بتقديرنا - إلى أنهما - وهما في مثل سنه أو أصغر قليلاً - لما يكونا قد نبغا في الطب بعد، في السنة التي صنف فيها "طبقاته ... (سنة ٣٧٧هـ)، وكان له من العمر ستّة وأربعون! وسوف تكون لنا وقفة عند كل منهما في بحث مستقل!

٣- المصادر التي أشارت إليه:

أقول: المصادر التي "أشارت إليه"، ولم أقل: التي "تحدثت عنه" ... ذلك أن ما ورد في المصادر التاريخية عن ابن الهيثم، لم يتعد "الإشارات" الصغيرة العابرة!

١- وأول من أشار إليه هو معاصره ابن جلجل (المتوفى بعد ٣٩٩هـ)^(١)!!

ذلك أنّ معاصره الذي أغفل الترجمة له في "طبقاته"، قد أتى على ذكره تعداداً بين أولئك "النفر" (اللجنة، فريق العمل) من الباحثين عن أسماء العقاقير التي تضمنها كتاب ديسقوريدس، وذلك في كتابه - كتاب ابن جلجل - الآخر، الضائع معظمه: "تفسير أسماء الأدوية من كتاب ديسقوريدس".

وكانت العبارة:

و"من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب: ... عبدالرحمن ابن إسحاق بن الهيثم..."^(٢).

(١) ذهب محقق "طبقات .." ابن جلجل، في دراسته المستفيضة التي قدم بها تحقيقه العلمي الجيد، إلى أن وفاة ابن جلجل كانت بعد سنة ٣٨٤هـ، لأسباب قدرها ... وأذهب - أنا كاتب السطور - إلى أنّ وفاته تأخرت عن ذلك إلى ما بعد ٣٩٩هـ؛ وذلك استناداً إلى عبارة وردت في "طبقات الأمم" للقاضي صاعد الطليطلي (ت ٤٦٢هـ)، تقول إنه كانت هناك، "حتى آخر الدولة العامرية، جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب ... منهم: سليمان حسان المعروف بابن جلجل"، "طبقات الأمم"، تحقيق حياة بوعلون، دار الطليعة ببيروت ١٩٨٥، ص ١٩٢.

ومعروف أن "الدولة العامرية"، التي أقامها محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور)، لم تنته بوفاته (٣٩٢هـ)، بل بمصرع ثاني ولديه - الذي تسلم السلطة بعد أخيه - عبدالرحمن، سنة ٣٩٩هـ!

(٢) نقل ذلك، عن ابن جلجل الأندلسي، مؤرخ الأطباء الدمشقي ابن أبي أصيبعة، في كتابه عيون الأنبياء ...: "٤٩٤".

وإنها لأول إشارة تُسجل لابن الهيثم ريادته في الطب النباتي!

٢- وفي القرن التالي (الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي) تأخذ "الحمية" أديب الأندلس وفقهها الكبير، أبا محمد علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، فيكتب - إثر محاولة بعضهم في العودة المغربية أن يُضائلوا من شأن الأندلس علماء وأدباء - رسالته "في فضل الأندلس وذكر رجالها" ... ولم يغزب عن بال ابن حزم بلديّه العالم النابه ابنُ الهيثم، وقد مضت على وفاته عقود من السنين، فيقول مُفاخراً به، في هذه العبارة الوجيزة:

"وكُنْتُ ابنُ الهيثم، في الخواصّ والسموم والعقاقير، من أجلّ الكتب وأنفعها"^(١)!

٣- وبعد عقود من السنين أخرى، ينقل هذه العبارة عن ابن حزم، تلميذه الحميدي (ت ٤٤٨هـ)، في كتابه "جذوة المقتبس" بعد أن يُقدم لها بأخرى ... يقول:

"ابن الهيثم: من المشهورين بعلم الطب والتقدم فيه. وله (كتب) في الخواصّ والسموم والعقاقير، من أجلّ الكتب وأنفعها. ذكره أبو محمد علي بن أحمد بن حزم"^(٢).

(١) "رسائل ابن حزم"، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ٣: ١٨٥ (سنة ١٩٨١).

وقد نقل العبارة، وبالأحرى نص الرسالة كاملاً، المقرّي (ت ١٠٤١هـ) في كتابه "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ببيروت ١٩٦٨، ٣: ١٧٥.

(٢) "جذوة المقتبس"، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦: ٤٠٧؛ وقد وردت: وله (كتاب) ... فصحنها!

٤- وبعد مئتين من السنين أخرى، يُترجم له، بإيجاز بالغ، مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة الدمشقي (ت ٦٦٨هـ)، فيقول:

"عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم: من أعيان أطباء الأندلس وفضلاتها، وكان من أهل قرطبة. وله من الكتب: كتاب الكمال والتمام في الأدوية المُسهلة والمُقيّنة؛ كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد؛ كتاب الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء، صنّفه للحاجب القائد أبي عامر محمد ابن أبي عامر؛ كتاب السمائم"^(١).

٥- ولعل آخر من ذكره من القدماء، مستشهداً بعلمه، هو بليدّ الأندلسي عبدالله بن البيطار (ت ٦٤٦هـ). ذلك أنه - في موسوعته النباتية: "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" - نقل عن ابن الهيثم، الذي سبقه بنحو ثلاثمئة سنة، عدداً من مفرداته

(١) ابن أبي أصيبعة: ٤٩٣.

وفي ترجمة بليدّنا الدمشقي هذه، إضافات صغيرة، لم يسبق أن وردت في المصادر الأندلسية المعروفة. ونرجح أنه استقاها من مصدر غير ما ذكرنا، هو ذلك الكتاب الذي ألفه أندلسي وفد من مدينة "جيان" الأندلسية إلى مصر في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، هو أبو يحيى، اليسع بن حزم الغافقي، الذي استوطن - حسب رواية ابن الأبار - الإسكندرية أولاً، قبل أن يتوجه إلى القاهرة، فيشتمل عليه الملك صلاح الدين ... له تاريخ سماه "المغرب في محاسن المغرب". توفي بمصر سنة ٥٧٥هـ. انظر: ابن الأبار: "المعجم في أصحاب ... الصّدي"، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧: ٣٣٤؛ و"التكملة لكتاب الصلة"، طبعة مجريط ١٨٨٧: ٧٤٤.

نرى ذلك، لأن كتاب اليسع الأندلسي، كان في جملة المصادر التي اعتمدها المؤرخ الدمشقي لدى تصنيفه موسوعته في تاريخ الطب. ومن المرات، التي ذكر فيها مصدره هذا، كان في ترجمته الموجزة للطبيب حامد بن سمحون (الذي أهملته أيضاً المصادر الأندلسية المعاصرة له؛ وإن لنا دراسة عن شخصه وعلمه)!.^(١)

الطبية، أحصيتها فوجدتها ثمانى (أعرض لها بالتفصيل أدناه)! وصمتت عن ابن الهيثم، صمتاً كلياً، كتبُ تراجم، أندلسية مهمة، هي:

- "طبقات الأمم" للقاضي صاعد الطليطلي (ت ٤٦٢هـ).
- كتاب "الصلة" لابن بشكُوال (ت ٥٧٨هـ)^(١).
- "التكملة لكتاب الصلة" لابن الأَبَّار (ت ٦٥٩هـ).
- وأما موسوعة التراجم الأندلسية الكبرى: "الذيل والتكملة ..."، ذات الأسفار الثمانية، لابن عبدالمك الأنصاري (ت ٧٠٣هـ). فقد كان الأمل أن نجد ترجمة لطبيينا في سفرها الرابع ... إلا أن مخطوطة هذا السفر - الوحيدة الباقية حتى أيامنا، والتي تم تحقيقها مؤخراً - كانت "قطعة" من السفر لا كله، فغاب موضع الترجمة في ما ضاع من أجزاءه ... وهذا من سوء الطالع أيضاً^(٢)!

وفي العصر الحديث ترجم له المستعرب الفرنسي الطبيب لوسيان لوكليرك Lucien Leclerc (١٨١٦ - ١٨٩٣)، في كتابه "تاريخ الطب العربي"، حيث رجع إلى حديث ابن جلجل عنه، فقال: إنه "كان في عداد الأطباء المكلفين بمساعدة الراهب نقولا في تعيين النباتات المذكورة في كتاب ديسقوريدس"، وأدرج أسماء كتبه نقلاً عن ابن أبي أصيبعة، وأشار إلى نقول ابن البيطار منه في كتابه "جامع المفردات ..."^(٣).

(١) قسمان، في مجلدين، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٦.

(٢) "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"، السفر الرابع تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت (١٩٦٤، تاريخ المقدمة).

(٣) Lucien LECLERC: Histoire de la médecine Arabe (2T.), Paris 1876, Réédité (٣) Rabat(الرباط).1980, 1:430.

وأما "أعلام الزركلي و "معجم المؤلفين" لكحالة، فلعل إغفال المؤلفين الترجمة له مرده إلى أنه كان من شرط موسوعتيهما تحديد واحد على الأقل من تاريخي الولادة والوفاة للمترجم لهم، ولما كان التاريخان معاً مجهولين في شأن ابن الهيثم، فضلاً عن ضالة المعلومات عنه، فقد أضربا عن ذكره!

٤ - مؤلفاته:

في ما أشار إليه ابن حزم الأندلسي، وما عدده ابن أبي أصيبعة الدمشقي، من مؤلفات أبي إسحق بن الهيثم، نجد أنها أربعة، هي:

أ- كتاب "الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة"، انفرد بذكره المؤرخ الدمشقي^(١).

ب- كتاب "السموم" عند ابن حزم، و"السائم" عند ابن أبي أصيبعة^(٢).

ج- كتاب "الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء"، سماه بذلك ابن أبي أصيبعة، في حين أشار إليه ابن حزم على أنه كتاب في "الخواص"^(٣).

(١) ابن أبي أصيبعة: ٤٩٣.

(٢) "رسائل ابن حزم... ٣: ١٨٥؛ وابن أبي أصيبعة: ٤٩٣.

(٣) ابن أبي أصيبعة: ٤٩٣؛ "رسائل ابن حزم... ٣: ١٨٥.

وخواص العقاقير هي قواها التي تؤثر في الأجسام. وقد أسرف الأطباء القدامى في بيان مثل هذه الخواص، في كتب أفردوها لذلك، تدور حول الفوائد التي تُجنى من بعض العقاقير، حتى دخلوا حدود الخرافة!

ويضيف ابن أبي أصيبعة أن ابن الهيثم صنف كتابه هذا "للحاجب القائد أبي عامر محمد ابن أبي عامر".

وابن أبي عامر هذا هو من عُرف في التاريخ بـ "الحاجب المنصور"، الذي تسلط على ولد الحكم المستنصر: هشام المؤيد بالله، يوم آلت إليه الإمارة بعد وفاة أبيه في سنة ٣٦٦هـ وهو غلام.

د- كتاب "الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد"، انفراد بذكره ابن أبي أصيبعة^(١).

(١) ابن أبي أصيبعة: ٤٩٣.

ويرى الباحث في تاريخ الطب العربي، صديقي الدكتور مختار هاشم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، أنه ربما كان في عنوان هذا الكتاب تحريف في الكلمتين الأوليين منه، وتبديل في موضعهما، فلعل الصواب: الإيجاز والاقتصاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد.

والطبيب القيرواني ابن الجزار (٢٧٨- ٣٦٠هـ)، يُعد ثالث ثلاثة ممن نسميهم مؤسسي "مدرسة القيروان الطبية" (والأولان هما: إسحاق بن عمران البغدادي، ت حوالي ٢٧٩هـ، وإسحق بن سليمان الإسرائيلي المصري، ت بعد ٣٤١هـ).

وقد لازم ابن الجزار، في عيادته بالقيروان، مدة، الطبيب الأندلسي عمر بن بريق - المار ذكره أعلاه- فلما انصرف إلى بلده حمل معه نسخة من كتاب أستاذه: "زاد المسافر وقوت الحاضر"، ونرجح أنه عاد أيضاً بكتب أخرى له، منها "الاعتماد في الأدوية المفردة"، هذا الذي اتفق وصوله إلى قرطبة حين اشتغال ابن الهيثم بمراجعة "حشائش" ديسقوريدس؛ فتعقبه طبيبنا النباتي، وصنف كتاباً في ما وجدته فيه من أخطاء، في المفردات، كانت فاشية بين الأطباء!

حول ابن الجزار، انظر: فاضل السباعي: "الطبيب ابن الجزار القيرواني" (في حلقتين)، مجلة "القافلة"، العددان المتتابعان: شعبان ورمضان ١٤٠٧ (مارس وأبريل ١٩٨٧).

وفي مناقشة بحثي هذا، عن ابن الهيثم، في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب، أعلن صديقي الباحث الدكتور محمد زهير البابا، عضو مجمع اللغة العربية، أنه ينبغي ألا نولي اهتماماً كبيراً لمسألة تعقب ابن الهيثم لأخطاء ابن الجزار في كتابه "الاعتماد..."، لأن الطبيب القيرواني كان عالماً كبيراً كثير التآليف، على حين أن ابن الهيثم لم يؤلف إلا القليل وقد أهمله التاريخ.

قلت: إن ابن الجزار القيرواني كان عالماً قد تعددت مواهبه، فهو ألفت في الطب والدواء (الصيدلة) وفي الأدب والتاريخ؛ وأما معاصره ابن الهيثم القرطبي فقد عانى دراسة كتاب ديسقوريدس في نصه الأصلي، وعرف ما جهل غيره من الأطباء - وذلك ما لم يُتَح

ومن المؤسف أننا نفتقد اليوم هذه الكتب مطبوعة؛ ونجهل ما إذا كانت مخطوطاتها موجودة في المكتبات العامة، العربية والعالمية!

ثانياً: نموذج من علمه

٥- "بخور مريم"، خاص بابن الهيثم:

قلنا إن ابن البيطار قد نقل، في كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"^(١)، عن طبيبنا ابن الهيثم، أو ذكر اسمه، مرات ثمانية، هي، على الترتيب الهجائي الذي اتبعه في موسوعته: بخور مريم، جوز الرقع، جوز القيء، جِرْدُون، دند، عقرب، كَبَابَة، كَمُون ... معظمها مفردات نباتية، واثنان حيوانيتان، وليس بينها مفردة معدنية^(٢).

وقد جرى ابن البيطار على أن يُدرج، تحت كل مفردة، ما توافر حتى عصره من المعلومات عنها، ناسباً كل نص إلى صاحبه بأمانة ملحوظة. وقد تعز المعلومات فما يملك منها في مفردة ما، سوى نص وحيد ... من ذلك ما سماه "بخور مريم آخر"، وكان النص الوحيد المدرج تحته لابن الهيثم!

للطبيب ابن الجزار - ووقف عمله كله على الأدوية، فهو - في مصطلح اليوم - "متخصص" في مضماره، فيصبح سائغاً أن يتعقب المتخصص الأخطاء عند من لم يُدرك مثل تخصصه، هذا فضلاً عن أن كتاباً لابن الهيثم في تعقب أخطاء الطبيب القيرواني مذكور في المصادر التاريخية وإن لم يصل إلينا نصه، فهو حقيقة واقعة.

(١) طبعة مصورة بالأوفست (دار المدينة؟، د. ت)، طبعة بولاق ١٢٩١هـ (١٨٧٥م).

(٢) تتكون الأدوية المفردة Simple (غير المركبة)، من أصناف ثلاثة: نباتية، وحيوانية، ومعدنية؛ ويسمى النباتي منها: "العقاقير"، التي تكون ورقّ النبات، أو بزوره، أو أصله (جذره)، أو قضبانه، أو زهره، أو ثماره، وقد تكون جملة النبات كما هو.

"القانون في الطب"، دار صادر ببيروت (د. ت) (طبعة مصورة عن طبعة بولاق

١٢٩٤هـ) : ١ : ٢٣٨.

وَصِفَة "بخور مريم" الأول، المعروف لدى القدماء، كما حَلَّاه ديسقوريدس أن في ورقه آثاراً "لونها إلى البياض"؛ وله "ساقٌ طولها أربع أصابع، عليها زهرٌ شبيه بالورد الأحمر وفي لونه فرفيرية؛ وله أصلٌ أسود، شبيه في شكله بالشلجَم، إلى العرض مائل ..."^(١).

ثم يعدد العشاب الإغريقي ديسقوريدس منافعه، ومنها: أنه يُسهل البطن، ويُدر الطمث، وينفع من سموم الهوام ومن ضعف البصر،؛ وأصله يُنقي البشرة، ويذهب بالبثور، ويوافق النَّقْرَس ... ولا يفوته أن يقول: "وزعم بعض الناس أنه إذا تخطته امرأة حامل أسقطت؛ وإذا شُد في الرقبة، أو في العضد، منع الحبل"^(٢)!

(١) "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" ١: ٨٤.

واللون الفريري هو الأحمر القاني جداً.

والشلجَم (أو السلجم) من الفارسية: اللفت.

ومثل هذا الوصف، مع اختلاف يسير، أورده الطبيب القوصوني المصري (كان حياً ١٠٤٤هـ): "وبخور مريم نباتٌ ورقه كورق اللبلاب الكبير، وفيه آثارٌ بيض؛ وساقه صغير، وعليه زهر كالورد الأحمر؛ وأصله أحمر"، "قاموس الأطباء وناموس الألبا" (جزءان) من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٩ و ٨٠، ١: ١٥٣.

(٢) "الجامع ..." ١: ٨٤.

وأصل النبات (أو الشجرة): أسفلها (جذورها).

والبثور والبثور هو الخراج الصغير.

والتَّقْرَس Goutte، حسب تعريف القوصوني: "وجعٌ وورم يحدث في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين، ولا سيما مفصل الإبهام"، "قاموس الأطباء ..." ١: ٢٢٢.

ويعزو ابن زُهْر بعض أسباب النَّقْرَس "على من التزم المشي على غير اعتياد"، ويقول:

وقلما رأيتُ من عَيْشُهُ من المشي إلا مُنْقَرَساً!، "التيسير في المداواة والتدبير"، تحقيق

الدكتور ميشيل الخوري، من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو)

تونس، مطبعة دار الفكر بدمشق ١٩٨٣، ص ٣٧٦.

وقد رأى ابن البيطار في تحلية ابن الهيثم لهذا النبات (أي في وصفه له)،
وجهاً مخالفاً لتحلية ديسقوريدس، فأدرج بعد هذه المفردة، ما أطلق عليه "بخور
مريم آخر"، مُتبعاً إياه نص طبيينا الأندلسي:

"ابن الهيثم: هو نبات، له ورقٌ دقيق في صفة ورق الثيل، وعُسلُجٌ في ارتفاع
رقيق؛ في أصل كل ورقة عُسلُجٌ صغير، وفي طرفه رؤوسٌ صُفر كأنها شعبةٌ من
إكليل الشَّبث؛ وبزره كبزره"^(١).

ثم لم يُغفل تلك "الخاصة" العجيبة، التي أشار إليها ديسقوريدس في بخور
مريم، الأول، على سبيل الزعم، فأوردها هو دون تحفظ: "وأصل هذا النبات إذا
عُلّق على المرأة منع الحبل"^(٢)!

وعرّف مصطفى الشهابي، من المعاصرين، نوع بخور مريم الأول:

بخور مريم، شجرة مريم، كفّ مريم، عَرَطْنِيثَا Cyclamen: هو السكوكع
ودُويك الجبل، في بعض أنحاء الشام. جنس نباتات عشبية معمرة من فصيلة
الربيعيات، لها زهرٌ جميل، تنبت برية في جبال الشام الغربية، وتُزهر في أواخر
الشتاء مع المُكحلة، وتُزرع لزهرها^(٣).

(١) "الجامع...": ١: ٨٥.

والثَّيْل، والثَّيْل، هو النجم، والنجيل، والنجير، "الجامع..": ١: ١٥٣... نباتٌ عارض
مُضِرّ، من الفصيلة النجيلية.

والعُسلُج، والعُسلُج: ما لان واخضرّ من قضبان الشجر.

والشَّبث: بقلةٌ سنوية من التوابل.

(٢) "الجامع...": ١: ٨٥.

(٣) "معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية" (إنكليزي - عربي)، إعداد أحمد شفيق

الخطيب، مكتبة لبنان ببيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٦- نوع من "الجوز" يحمل على التهوع:

وإذا كان ابن البيطار قد نقل تحلية ابن الهيثم الوحيدة لنبتة بخور مريم، فإنه ينقل، في مفردة "جوز القيء"، تحلية قال بها أندلسي آخر هو الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ)، المتأخر حقة عن عصر طبيينا أبي إسحق:

"الشريف: (جوز القيء) هو ثمرة شجر، يكون نباته في سروات اليمن فقط؛ وقدره على قدر البندق، بل أعظم منه بقليل؛ في جوفه شبيهه حُجْب، بين الحجاب والحجاب حبة شبيهة بحب الصنوبر الكبير، وفيها بعض النتن"^(١).

ولقد حلّى أبو جعفر الغافقي (ت بعد ٥٦٠هـ) هذا الجوز، فقال:

جوز القيء: "ويسمى جوز الرقع يُؤتى به من اليمن. وقيل إنه ضرب من الحُمّاض. وهو أكبر من البندق قليلاً، لونه بين الصفرة والبياض فيه تحزير"^(٢).

وبعد خمسمئة سنة أخرى، يُعرّف به أبو القاسم الغساني الشهير بالوزير (ت ١٠١٩هـ)، فيقول:

(١) "الجامع...": ١: ١٧٦.

وسرّة كل شيء: أعلاه، ح سَرَوات. وسروات اليمن: مرتفعاتها!

(٢) "منتخب جامع المفردات للغافقي" حقق نصه العربي وترجمه إلى الإنكليزية: ماكس مايرهوف وجورج صبحي (نقلًا عن "المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية"، جزآن، تأليف إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥، ٢: ٢٣٠).

والحُمّاض: نباتات عشبية من فصيلة الحُمّاضيات، وهي أنواع تنبت برية، ويزرع بعضها. ويقال لما في جوف الأترج (الكباد، بعامية الشام): حُمّاض. ويلاحظ أنّ الغافقي قد جعل جوز القيء وجوز الرقع واحداً!

"جوز القيء: هو ثمرة شجرة تنبت بالسودان؛ لونه أبيض إلى الصفرة، أعظم من البندق، ويسمى بجوز قاتل- يعني: لمن أكله بقوة - ويسمى بجوز الدفع، لدفعه بالقيء والإسهال"^(١).

وأما نصّ عبدالرحمن بن الهيثم - الذي نحسب أن ابن البيطار قد استمده من كتاب طبيبنا: "التمام والكمال في الأدوية المُسهلة والمُقيئة"- فكان بياناً بالكيفية التي يكون بها استعمال هذا العقار ... يقول:

"ابن الهيثم: إذا شُرب (من جوز القيء) وزن درهم كميلاً بوزن متقال من الأنيسون المسحوق، أو بزر الرازيانج، وعُجن بكفاية من العسل، وشُرب منه بماء حار، هيّج القيء، وقياً فضولاً مرّيةً وبلغميّة. ويُسهل أيضاً من أسفل، على قدر القوة والفصل والطبع"^(٢).

وفي المصادر العلمية الحديثة: جوز القيء *Strychnos nux-vomica*: شجرٌ طبي عظام، من فصيلة اللوغانيات، يُستخرج منه الإستركنين.

وقد عددت مصادر تراثنا الطبي أنواعاً من الجوز، وبينت فوائدها تفصيلاً، منها: الجوز (مطلقاً، أي جوز الأكل)، وجوز بُوا (جوز الطيب)، وجوز مائل،

(١) "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار"، تحقيق محمد العربي الخاطبي، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥، ص ٧٨. والغساني هو من سلالة الأندلسيين اللذين نزحوا عن الوطن الأم إلى العُدوة المغربية.

والمقصود بالسودان: ما يعرف اليوم بغربي إفريقية (قبل أن يختص القطر السوداني بهذه التسمية). وتلاحظ تسمية الجوز بجوز الدفع على المجاز!

(٢) "الجامع ...": ١: ١٧٦.

والأنيسون (من اليونانية *Pimpinella anisum*)، وهو اليّنسون بعامية الشام: نبتٌ، بزره من التوابل المشهورة؛ والرازيانج (من الفارسية): جنس يُقول ... وهما من الفصيلة الخيمية.

وجوز الخمس، وجوز عَبَهْر، وجوز القطا، وجوز الشَّرْك، وجوز الهند، وجوز
المرج، وجوز الريح (أو الزنج)، وجوز الأنهار وجوز الكَوِثْل، وجوز أرمانْيوس،
وجوز جُنْدُم، وجوز أرقم، وجوز السرو، وجوز الطرفا ... فضلاً عن جوز القيء
وجوز الرقع.

وقد ذهب ابن الهيثم إلى أن جوز القيء وجوز الرقع واحد ... وهذا مذهب
ناقشه فيه ابن البيطار (على ما نُبين حالاً).

٧- حوار العلماء:

ومما يمكن أن نُعده "حواراً" بين العلماء - ليس ساعة يجتمعون وجهاً لوجه
في مجالس العلم المعهودة، بل هو الحوار الذي يجري بينهم في "مجالس التاريخ"
المعقودة أبدأ!- هذا النص الذي نقله ابن البيطار (القرن السابع الهجري) عن ابن
الهيثم (القرن الرابع)، في مفردة "جوز الرقع": "وقال عبدالرحمن وحده: هو جوز
القيء"^(١)! ... فإن ابن البيطار يقول مُفْتدّاً:

"وفي قوله نظرٌ ومطالبة (... فقد) ذكر أبو حنيفة الدينوري (ت حوالي
٢٨٢هـ) أن طعم الرقع طعم حلو يُغتذى به؛ وهذه صفةٌ بعيدةٌ من صفة جوز
القيء جداً!".

ثم نرى ابن البيطار يتلطف إذ يتلمس المُسوغات لمقولة ابن الهيثم:

(١) والواقع، أن عبدالرحمن بن الهيثم لم يكن وحده من قال بأن "الرقع" و"القيء" واحد، بل تبعه
في ذلك الغافقي (كما سلف ببيائه أعلاه).

"وعسى أن تكون هذه القوة تختلف في منابته، فيكون منه، لهذا، السببُ المقبيء وغيره؛ أو يكون أبو حنيفة لم يقف على هذا من فعله، أو وقف عليه ولم يذكره إذ لم يكن من عنايته"^(١)!

وفي النبات المسمى "دند"، يقول ابن البيطار: "هو الخِرْوَع الصيني"، ويضيف مخطئاً:

"وغلط من قال إنه الماهودانه، كما قال ابن جلجل وابن الهيثم! وأكثر أطباء زماننا هذا يغلطون في ذلك! وقد ذكر (أطباءً - وعدد ثلاثة من قدمائهم-) الدند والماهودانه بصنفين مختلفين"^(٢).

وأما الماهودانه (والصحيح: الماهوبدانه) فإن تأويله بالفارسية (يقول ابن البيطار: هو) القائم بنفسه، أي أنه يقوم بذاته في الإسهال". وهو - عند ديسقوريدس - "نباتٌ يعده الناس من أصناف اليتوع ... وهذا النبات - كما هو - مملوءٌ لبناً؛ وبزره - عند جالينوس - "فيه خاصية قوة الإسهال"^(٣).

(١) "الجامع ...": ١: ١٧٦.

(٢) "الجامع ..": ٢: ٩٧.

وقد وردت "التخنة"- التي شملت ابن الهيثم ومعاصره ابن جلجل معاً- ابتداءً، عند الغافقي (القرن السادس الهجري)، "المصطلح الأعجمي ...": ٢: ٣٨٣ و ٨٤؛ وعنه نقلها ابن البيطار دون أن ينسبها إليه!

والدند، في تعريف القوصوني: "هو المعروف بحب الملوك، وهو ثلاثة أصناف: صيني، وشجري، وهندي؛ فالصيني كبير يشبه الفستق؛ والشجري منقط بسواد؛ والهندي يتوسط في القدر بينهما. والحببة تنقسم إلى نصفين، وفيها لسان ..."، "قاموس الأطباء ..": ١: ١٢٩.

(٣) "الجامع ...": ٤: ١٢٢.

ويذكر الشهابي: اليتوع (من السريانية) هو الفرزيون Euphorbia يطلق على كل نبات له لبن دارّ. جنس نبات من فصيلة الفربيونات، فيه عدة أنواع، لا كبير شأن لها في الزراعة. منها: الماهودانه E. lathyris، والجلباب، والشيرم، واللاعية ...

٨- تصنيف أنواع:

وغير ما سبق - من مفردات ابن الهيثم في "جامع .. ابن البيطار - هناك "الكَبَابَة" (فارسية، والاسم العلمي Piper cubeba). يعرّفها إسحق بن عمران (من المدرسة القيروانية): هي "حبّ العروس، ونعتها مثل نعت الفلفل، ولها أذنان، وأطرافها ولونها أصهب"^(١).

ويأتي ابن الهيثم بإضافة ما:

الكبابة "صنفان: كبيرة وصغيرة. والكبيرة هي حب العروس، والصغيرة هي الفلنجة"^(٢).

وفي منافع الكبابة، من كل صنف وتسمية، يقول جالينوس إنها مدرة للبول، ومنقية للكليتين من الحصى. وإذا أمسكت في الفم - كما يقول الشريف الإدريسي - حسنت اللثات وعطرت الأنفاس^(٣). وعند القوصوني - الذي يراها حباّ يُجلب من الهند - هي من البخورات اليابسة التي تنفع مع غيرها من "السعال الكثير الرطوبة"^(٤).

و"الكمون" (والاسم العلمي Cuminum)، عند ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، أصناف أربعة: كرمانى، وفارسى، وشامى، ونبطى^(٥).

(١) "الجامع ...": ٤ : ٤٨.

(٢) "الجامع ..": ٤ : ٤٨.

وتدخل الفلنجة، عند إسحق بن عمران، "في الطيب .. وهي، في صفتها، مثل حب الخردل وأكبر، لها عيدان صغار مثل العُقد"، "الجامع ..": ٣ : ١٦٥.

(٣) "الجامع ..": ٤ : ٤٩.

(٤) "قاموس الأطبّاء ..": ١ : ٥٧ و ١٥٣.

(٥) "الجامع ..": ٤ : ٨١.

وفي تعريف الكمون، عموماً، يقول الغساني الوزير:

"من جنس الهدبات ومن ذوي الجُم، ويقع على نباتات كثيرة، ولكن الأخص به هذا النوع الذي هو من التوابل؛ له ورق لطيف رقيق كورق الشَّبث؛ وزهره دقيق أبيض كزهر الكزبرة وهو معروف عند الخاصة والعامة"^(١)!

ولكن ابن البيطار ينقل عن إسحاق بن عمران، أنّ هناك "كموناً أبيض"^(٢)؛ كما ينقل عن طيبينا عبدالرحمن بن الهيثم:

أنّ هناك الكمون الأسود، و"هو البري، الشبيه بالشونيز"^(٣).

٩- خواص الجرذون والعقرب، العجيبة!

(١) "حديقة الأزهار ..": ١٤١.

والجم، مفرداً جمّة، وهي الشعر الكثير!
ويتابع الغساني معدداً منافعه وخواصه: "تافع من ذوات السموم والهوام، مدر للبول والطمث، يطرد الرياح، ويحلل الصلابات. وإذا شرب بالماء نفع من الأمغاص والنفخ، وإذا شرب بالخل نفع من الفواق. مدمل للجراحات، قاطع للرعاف إذا أدخلت منه فتيلة في الأنف. وعصارتة تجلو البصر، وتزيل الدمعة".

(٢) "الجامع ..": ٤ : ٨٢.

والكمون الأبيض أو حبة الحلاوة أو الحبة الحلوة (في المغرب): هي الأنيسون (الينسون).

(٣) "الجامع ..": ٤ : ٨٢. وقد ورد الاسم محرفاً: عبدالله بن الهيثم!

ويقول ابن البيطار، في مفردة "كمون أسود": "هو الكمون البري على الحقيقة؛ وقد يقال أيضاً على الحبة السوداء بالعربية وهو الشونيز"، "الجامع ..": ٤ : ٨٣.

والشونيز (فارسية)، أو الحبة السوداء *Nigella*: جنس نباتات عشبية حولية، فيه أنواع تزرع لحبها أو لزهرها، وأنواع تنبت برية في الحقول. ومن الشونيز المزروع: الحبة السوداء *N. sativa*، نوع يزرع للحصول على بزرتة التي تسمى في مصر والشام، بحبة البركة.

قلنا: إنّ الأطباء القدامى قد أسرفوا، أحياناً، في الحديث عن خواص بعض العقاقير والمفردات الطبية، حتى بلغوا حدّاً يمجّه الذوق السليم. إلا أنّ ميل الإنسان الفطري إلى سماع الأعاجيب والتأثر بها، كان يُزيّن لبعضهم - مع ما مُنَّعوا به من الفهم والعلم - الكتابة في خواص تُثير الخواطر، وتبعث الدهشة، وتحمل على التعلق بآمال لا تعدو أن تكون أوهاماً!

وقد كان لا بد لعبدالرحمن بن الهيثم من أن ينساق مع منطق العصر، فكانت منه مفردات - ربما هي ما ضمه كتابه المسمى "الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء" - قد اجترح بعضها من خياله، مثلما اقتبس من الأطباء السابقين عليه، عرباً وأغارقة، فزاد عليهم في ما اقتبس بحكم الانسياق^(١)!

فعن دُبيّة "الحرذون" - في موسوعة ابن البيطار - يقول "مهراريس، في خواصه: إن غُلّق قلب الحرذون على صاحب حُمى الرّبع في خرقة سوداء، أبرأها وأزالها"^(٢)! وأما ديسقوريدس فينقلون عنه: "خرء (الحرذون ...) يصلح لتحسين

(١) من ذلك ما بينا من قول ديسقوريدس عن نبات "بخور مريم": وزعم بعض الناس أنه إذ تخطته امرأة حامل أسقطت! وإذا شد في الرقبة، أو في العضد، منع الحمل!". فكان أن "تخطى" طبيبنا ابن الهيثم "الزعم" إلى ما هو في حكم اليقين، عندما قال: "وأصل هذا النبات إذا غُلّق على المرأة منع الحمل"، "الجامع ..": ١ : ٨٤ و ٨٥.

(٢) "الجامع ..": ١ : ١٨.

وحُمى الربيع هي الحمى التي "تأخذ يوماً، وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع"، حسب تعريف القوصوني، ١ : ٢٥٥.

ولا يرى الطبيب الأندلسي عبدالملك بن زُهر (المعروف بـ"الابن") هذه الحمى خبيثة، "وإنما شرها كله في عُسر نُضجها"، "التيسير في مداواة والتدبير": ٣٩٦.

وعن الحُميات في نظر ابن زُهر - وهي: حمى يوم، غِبّ، وزد، دموية، رُبّع - انظر: فاضل السباعي: "الطبيب الأندلسي عبدالملك بن الفقيه محمد بن زُهر" من خلال كتاب "التيسير .." (وهو جدّ صاحب التيسير)!. "أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم

اللون وصقال الوجه والبشرة؛ وأجود ما يكون من خَرْتِه الشديد البياض .. وإذا خلط برطوبة انماع سريعاً؛ وإذا فُرك فاحت منه رائحة إلى الحموضة ما هي، فيها شيءٌ شبيه برائحة الجميز! وقد يغشه قوم بخرء الزرارير التي تُعلف الأرز^(١)!

فجاء طبيبنا أبو إسحق بن الهيثم، وزعم - وأمامه هذه "المقدمات" - في كتابه "الاكتفاء ..":

أنّ "جلد (الحرذون)، إذا أحرق وطُلي به إنسانٌ، لم يخف ما يناله من الضرب والقطع"^(٢)!

وأما تعريف الحرذون، فهو:

عند الجاحظ: "دويبة تشبه الحرباء، تكون بناحية مصر وما والاها؛ وهي دويبة مليحة، موشاةً بألوان ونقط"^(٣).

عند العرب". (اللاذقية، نيسان ١٩٨٦)، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٩، ص ١٩٩-٢٢٥.

وصقال الوجه: صقله وجلاؤه!

والجميز: شجر من الفصيلة الخبزية (مثل شجر التين)، يؤكل ثمره، يكثر في مصر، ويسمى أيضاً - عند القوصوني المصري - بـ"التين الذكر"! ١ : ٢٠٤.

(١) "الجامع .." ١ : ١٨.

وأما جالينوس فيقول: "قال قومٌ: دمه يُجدد البصر! فتركته تجربته لقدره، فإني قدرت على غيره من الأدوية التي امتحنتها لفعل ذلك...!"

(٢) "الجامع .." ١ : ١٨.

أذكر أنني عرفت، وأنا على مقاعد الدرس بطلب، تلامذة كانوا من المقصرين في دراستهم، يزعمون لزملائهم أنهم قد تصيدوا، في ظاهر المدينة، حردوناً، فذبحوه ودهنوا أكفهم بدمه، فيمتنع إحساسهم بالوجع عندما يتلقون من المعلم الضرب بالعصا على أيديهم!

(٣) "كتاب الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت)، ٦ : ٥٨.

وفي معجم أمين المعلوف: "عَضْرُفُوط، أم حُبَيْن، حُبَيْنَة، جِرْدُون Agama: جنس من العَظَاء أعظم من العظاءة المعروفة في مصر بالسحلية وأضخم. يُعرف في مصر وسيناء بقاضي الجبل، وفي جزيرة العرب بالجينة. وهو أنواع كثيرة، منها نوع يُعرف في الشام بالحرذون A. Stellio"^(١).

وعند الشهابي: جِرْدُون Agama Stellio، جمع حرادين، وتأتي بدال مهملة: دويبة - غير الوَرَل وغير الضب - قلما يزيد قدرها على ٣٠ سنتيمتراً. وهي كثيرة في الشام"^(٢).

وفي "العقرب"، تلك الدويبة الضارة^(٣)، يقول ديسقوريدس: إذا أخذ نيباً، ودُقّ، وسُحِقَ ووُضِعَ على لسعة العقرب، أبرأها! وقد يُشوى ويؤكل، فيفعل ذلك أيضاً! ويسترسل ابن سينا: "وأما رماد العقارب، فيُدبّر بأن تطين قارورة تخينة بطين الحكمة، ثم يُجعل فيها العقارب في تنور حارة، ليلة أو أقل، من غير مبالغة في الاحتراق، ويُرفع من الغد! والزجاج خيّر من الخزف الناشف الآخذ للقوة!". ويزيد الشريف الإدريسي: "إذا سُحِقَ العقرب محرّقاً، وُخِطَ بمثل نصف وزنه خَرء فأر، واكتُحِلَ به، أحد البصر، ونفع من جرب العين"^(٤)! ...

(١) "معجم الحيوان"، طبعة مصورة، دار الرائد العربي ببيروت (د. ت) ص ٦ و ٧.

(٢) معجم الشهابي: ١٢.

(٣) كندتُ أعزف العقرب فأقول، على طريقة القدماء: "وهي معروفة!" فوجدت صاحب "معجم الحيوان" قد سبقني إلى مثل ذلك، يقول: "عقرب Scorpio، مؤنثه، وهي أنواع كثيرة!" ص ٢٢.

(٤) "الجامع .. ٣: ١٢٨.

و"طين الحكمة" من الأَطْيَان المركبة التي كان للقدماء اعتناءً عظيم بها، كما يقول الطبيب الضرير داود الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ)، وكان يُحتاج إليه، في الطب، لتوثيق آلات التقطير، والطبخ به (...)، وصنعته: طينٌ خالص جزء، فحمٌ مسحوق، شعر مقصوص، ملح مكلّس، خَطْمِي، خبث الحديد، كلس، قشر البيض، من كل نصف جزء، يُنخل،

ويزعم طبيبنا أبو إسحق:

"إِنْ أُخِذَتْ عَقْرَبٌ وَاحِدَةٌ، وَقَدْ بَقِيَ فِي الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَرْبَعَةَ، وَجُعِلَ فِي إِنْاءٍ وَصَبَ عَلَيْهَا زَيْتٌ، وَسَدَّ رَأْسَ الْإِنْاءِ، وَتَرَكَ حَتَّى يَأْخُذَ الزَّيْتُ قُوَّتَهَا، ثُمَّ يُدْهَنُ بِهِ مَنْ بِهِ وَجَعُ الظَّهْرِ وَالْفَخْذَيْنِ، فَإِنَّهُ يُبْرِئُهُ. وَقِيلَ: إِنْ طُلِيَ مِنْ هَذَا الدَّهْنِ عَلَى الْبُؤَاسِيرِ الظَّاهِرَةِ، جَفَّفَهَا وَأَسْقَطَهَا. وَإِنْ أُخِذَتْ عَقْرَبٌ مَيِّتَةٌ وَجُعِلَتْ فِي خِرْقَةٍ وَعُلِقَتْ عَلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي تُسْقَطُ أَوْلَادَهَا، لَمْ يَسْقُطِ الْجَنِينُ وَحَفِظَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا"^(١)!

فَتُلْغِي خَاصِيَةَ الْعَقْرَبِ، مَا سَبَقَ بَيَانَهُ مِنْ خَاصِيَةِ الْحِرْدُونِ، فِي إِسْقَاطِ الْجَنِينِ!

وبعد.

بهذه المعلومات الضئيلة عن ابن الهيثم، وببسيير من عمله الذي توافر لنا اليوم، اجتهدنا أن نرسم ملامح لهذا العالم الجليل، الذي كان واحداً في تلك الطليعة التي أخذت على عاتقها، في أندلس القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، أن تُراجِعَ

ويُعْجَنُ بِالْأَلْعَبَةِ، أَوْ الْخَلِّ، أَوْ اللَّبَنِ، عَجْنًا مُحْكَمًا؛ وَكَلِمَا تَخْمَرَتْ كَانَتْ غَايَةً فِيمَا يُرَادُ مِنْهَا! .."، "تَذَكُّرَةُ أَوْلِي الْأَبْيَابِ ..."، الْمَكْتَبَةُ الثَّقَافِيَّةُ بَبِيْرُوتِ (د.ت)، ١/ ٢٣٤.

و"جَرَبُ الْعَيْنِ" هُوَ، حَسَبَ وَصْفِ ابْنِ زُهْرٍ الْأَنْدَلُسِيِّ: مَا يَظْهَرُ، فِي بَاطِنِ الْجَفَنِ، مِنْ "خَشَوْنَةٍ شَبِيهَةٍ بِقَشُورِ التَّيْنِ"، "التَّيْسِيرِ ..": ٤٩. وَيَتَعَرَّفُ الْبَاحِثُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ ظَافِرُ الْوَفَائِيِّ الْإِسْمَ الْعِلْمِيَّ الْمَعَاوِرَ لِهَذَا الْمَرَضِ Trachoma، "المَهْدَّبُ فِي الْكَحْلِ الْمَجْرِبِ"، لِابْنِ النَّفِيْسِ، تَحْقِيقَ الدُّكْتُورِ الْوَفَائِيِّ وَالدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ رُوَاسِ قَلْعَةَ جِي، مِنْ مَنَشُورَاتِ الْمُنْظَمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلتَّرْبِيَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْعُلُومِ وَالثَّقَافَةِ (إيسيسكو)، (الرباط) ١٩٨٨، ص ٢٧٨.

وَلَا يَفُوتُ مَصْنَفُ "الْجَامِعِ .."، وَهُوَ يَسْتَوْفِي هَذِهِ الْخَوَاصِ، الْعَجَبِيَّةِ، أَنْ يَدْلِي بِدَلْوِهِ فِيهَا، يَقُولُ: "لِي: إِذَا قُلِّيْتُ عَقْرَبٌ فِي زَيْتٍ حَتَّى يَحْتَرِقَ، وَطُلِيَ بِذَلِكَ الزَّيْتُ مَوْضِعُ دَاءِ الثَّلْبِ، أَنْبَتَ فِيهِ الشَّعْرُ، مَجْرَبٌ!".

(١) "الجامع..": ٣: ١٢٨.

كتاب ديسقوريدس بلغته، الإغريقية؛ بل كان العالم الأقدَر، بين أُنْداده السبعة، على التآليف والتصنيف ... وبعده توالى وضع الكتب والموسوعات في المفردات الطبية! وأسمح لنفسى بأن أزعِم - كرة أخرى - أنه كان، حتى اليوم، إذا ذُكر اسم ابن الهيثم، تداعى إلى خاطر شخص عالم آخر، من المشرق، هو: محمد بن الحسن بن الهيثم!

ولكني أحسب أنّ المهتمين بالتراث العلمي العربي، سوف يميزون، بعد اليوم، ابنَ الهيثم الأندلسي، الرائد في الطب النباتي، من كنيّه المشرقي عالم البصريّات هذا الذي كان - بالمصادفة! - معاصراً لطبيبنا، مع سبق الأندلسي له في الولادة بنحو خمسين سنة^(١).

(١) أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم، ولد في سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، من أهل البصرة، انتقل إلى الديار المصرية زمن الفاطميين، وأقام بها إلى وفاته في نحو ٤٣٠هـ. يقول في حقه ابن أبي أصيبعة، الذي أفرد له، في كتابه، ترجمة ضافية: "و... لم يماثله أحدٌ، من أهل زمانه، في العلم الرياضي، وكان دائم الاشتغال، كثير التصنيف ... وخبيراً بأصول صناعة الطب، إلا أنه لم يباشر أعمالها، ولم تكن له دربة بالمداواة...": ٥٥٠.

مراجع البحث

أولاً: المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها):

- ١- الجاحظ- أبو عثمان، عمرو بن بحر (توفي سنة ٢٥٥هـ): "كتاب الحيوان" (سبعة مجلدات)، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة، المجمع العلمي العربي الإسلامي ودار إحياء التراث العربي ببيروت (د. ت) مصورة عن الطبعة الثالثة (١٩٦٩) (المجلد السادس).
- ٢- ابن جُلجُل - أبو أيوب، سليمان بن حسان (ت بعد ٣٩٩هـ): "طبقات الأطباء والحكماء" تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٥ (مصورة عن المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥)، مزيدة كتاب "تاريخ الأطباء والفلاسفة" لإسحق بن حنين (ت ٢٩٨هـ).
- ٣- ابن سينا - الشيخ الرئيس أبو علي، الحسين بن علي (ت ٤٢٨هـ): "القانون في الطب" (ثلاثة أجزاء)، دار صادر ببيروت (دون تاريخ) (طبعة مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م) (الجزء الأول).
- ٤- ابن حزم - أبو محمد، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ): "تاريخ ابن حزم الأندلسي" (صدر منها أربعة أجزاء)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٨٠ - ٨٣ (الجزء الثالث ١٩٨١).
- ٥- القاضي صاعد الطليطلي - أبو القاسم، صاعد بن أحمد بن صاعد (ت ٤٦٢هـ): "طبقات الأمم"، تحقيق حياة العيد بوعلوان، دار الطليعة ببيروت ١٩٨٥.
- ٦- الحُمَيْدي - أبو عبدالله، محمد بن فتوح الأزدي (ت ٤٨٨هـ): "جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس"، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦.

- ٧- ابن زُهر - أبو مروان عبدالملك بن زُهر الأندلسي (ت ٥٥٧هـ): "كتاب التيسير في المداواة والتدبير"، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) بتونس، مطبعة دار الفكر بدمشق، ١٩٨٣.
- ٨- ابن بَشْكَوَال - أبو القاسم، خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨هـ): "كتاب الصلة" (قسمان)، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦.
- ٩- ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد، عبدالله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦هـ): "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" (أربعة أجزاء في مجلدين)، دار المدينة (د. ت) (مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة ١٢٩١هـ / ١٨٧٥م).
- ١٠- ابن الأَبَّار - محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨هـ): "التكملة لكتاب الصلة" (مجلدان)، مجريط ١٨٨٦ و ٨٧ (المجلد الثاني).
- ١١- ابن الأَبَّار (أعلاه): "المعجم في أصحاب القاضي .. الصدي"، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧.
- ١٢- ابن أبي أصيبعة - موفق الدين أبي العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨هـ): "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ببيروت (د. ت).
- ١٣- ابن النفيس - علي بن أبي الحزم القرشي (ت ٦٨٧هـ): "المهذب في الكحل المجرب"، تحقيق الدكتور محمد ظافر الوفايي والدكتور محمد رواس قلعه جي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) (الرباط) ١٩٨٨.

١٤- ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي - أبو عبدالله، محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ): "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" (ثمانية أسفار، المطبوع منها خمسة متفرقة)، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة ببيروت وأكاديمية المملكة المغربية بالرباط، ١٩٦٤-٨٤ (السفر الرابع، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤).

١٥- داود الأنطاكي - داود بن عمر (ت ١٠٠٨هـ): "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب" (ثلاثة أجزاء)، المكتبة الثقافية ببيروت (د. ت) (طبعة مصورة).

١٦- الغساني الوزير - أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم (ت ١٠١٩هـ): "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار"، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥.

١٧- المقرئ التلمساني - أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ): "نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" (سبعة مجلدات والثامن فهارس)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ببيروت ١٩٦٨، (المجلد الثالث).

١٨- القوصوني المصري - مدين بن عبدالرحمن (ت بعد ١٠٤٤هـ): "قاموس الأطباء وناموس الألبا" (جزءان)، من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٩ و ٨٠.

ثانياً: المراجع

١٩- "الدولة البيزنطية": الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٢.

- ٢٠- "القاموس المحيط": الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- ٢١- "المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية" (مجلدان): إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥.
- ٢٢- "معجم أسماء النبات": الدكتور أحمد عيسى (ت ١٩٤٦)، دار الرائد العربي ببيروت ١٩٨١ (مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٣٠).
- ٢٣- "معجم الحيوان": أمين المعلوف، دار الرائد العربي ببيروت (د. ت) (طبعة مصورة).
- ٢٤- "معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية" (إنكليزي - عربي): إعداد أحمد شفيق الخطيب، مكتبة لبنان ببيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢ (نواة المادة العربية في المعجم من وضع وتحقيق الأمير مصطفى الشهابي، ت ١٩٦٨).
- ٢٥- Historie de Médecine Arabe (2T.): Lucien LECLERC- ١٩٨٠ الرباط (1816-1893) Paris 1876, Réédité Rabat